

كان سيد مكة وزعيمها . ليجمع الله تعالى للحبيب ﷺ شرف التَّسَبُّبِ كله. من عبد المطلب إلى هاشم إلى عدنان إلى اسماعيل ولد ابراهيم عليهما السلام . وكذلك الرسل تُبْعَثُ في نَسَبِ قومها. فقد افتداه بمائة ناقة لنذرٍ نذره سابقاً. وقد شاءت الأقدار أن يموت والده عبد الله وهو لا يزال في بطن أمه. في ذلك العام) عام الفيل(شاءت إرادة الله أن يخرج الحبيب ﷺ من بطن أمه ، التي حدثته أنها رأَت نوراً انبعث منها في الآفاق حينذاك. لقد حظي يوم كما حاز شهر ربيع الأول تلك الميزة عن باقي الشهور. فالكعبة على موعد قريب مع النبي الحبيب. (محمد) . وما أدراك ما محمد؛ محمود الصفات في الأرض والسموات. ﷺ. وكأني ببعض الاختلاف في حياته بشكل مبكّر كان لحكمة أرادها الله تعالى لاحقاً. فقد لقي حفاوة وترحيباً كبيراً من جده وأعمامه بولادته. 5. كفالة وحضانة وشق الصدر: وكانت ثويبة خادمة عمه أبو لهب حاضنته ومرضعته الأولى. حتى جاءت أمه في الرضاعة (حليمة) السعدية. وكان يلحم السعادة الغامرة في وجهها؛ ويستطبُّ بحصانتها ومناعتها، تحت سمع وعين أمه حليمة . أدرك لاحقاً أنهم ملكان مبعوثان من الله تعالى لتهيئته لشيء عرفه لاحقاً. هذا الموقف أفرغ إخوانه في الرضاعة. 6. يتمُّ الأم بعد الأب: عاش الحبيب ﷺ في كنف جده سنتين أخريين، يثرب تلك التي سيكون له معها شأن كبير في قابل السنين. وعند وصولهما إلى منطقة الأبواء؛ شاءت إرادة الله تعالى أن تُقبض روح أمه الحبيبة. إذ بترتيب الله تعالى يحيله عليه إلى منحة وفرج. 7. يتم الجد وكفالة العم: ترك الحبيب ﷺ أمه في قبرها، وقفل راجعاً إلى بيت جده مع القافلة التي كان فيها. جده الذي زادت رِقَّتُهُ وعنايته به لسنتين أخريين. حتى كان موعد الجد وجده لأبيه. إنه عمه أبو طالب. كثير العيال، قليل المال كما قيل. وقد تحركت قيمة الشعور بالمسؤولية في نفس الحبيب ﷺ؛ فوجد في رعايتها الأُنْسُ. وتعلم شيئاً من فنون الإدارة والسياسة بشكل مبكّر. ﷺ. 9. شهادة الصدق في السوق: واستمر الحال على ما هو عليه، حتى بلغ الحبيب ﷺ من العمر اثني عشر عاماً. وقد وجد من عمه هرماً وتعياً وكثرة عيال. فاستأذنه أن يشاركه في أعمال التجارة. ونوع مشاركة له في إعالة أولاده . وهكذا دخل السوق. وكم في السوق من إرهاق وتعَبٍ جسدي ونفسي . وقد وجد نفسه تسبح في بحر من الغش والكذب والاحتيال والاحتكار والربا . غير أنه وجد معية الله تعالى له في وقت مبكّر ، تلك المعية التي جعلت منه دُونَ أن يصاب بلوثاتها وجراحاتها ودون أن يغرق بمائها وعُبابها . لكنّ ما كان يراه من بركة كانت تشجعه وتغريه بمزيد من الشفافية والابتعاد عن الغش بصورة المتعددة. رحلة ولقاء عابر: ويذكر أن الحبيب ﷺ ارتحل مع عمه في طلب السوق والتجارة إلى الشام . وكانت زيارات سريعة عابرة. يُذكر أنه التقى على الطريق وفي عجالة وكان شاباً يافعا براهب نصراني اسمه (بحيرى) . وقد علم لاحقاً أن هذا الراهب حذّر عمه من اليهود خوفاً عليه، لا كما يزعم الزاعمون أنه قعد عنده زمناً أخذ عنه الرسالة والدين، 11. نقلة نوعية: وفي السوق شاءت إرادة الله تعالى أن تتعرف به سيدة شريفة اسمها (خديجة بنت خويلد). ونزلت البركة، ورجل آخر طلقها. فهي امرأة ذات خبرة اقتصادية واجتماعية ومكانة رفيعة في قومها. 12. زواج ميمون: وذات يوم جاءت جارياً من قِبَلِ خديجة تعرض أن يكون زوجها لخديجة . خديجة بنت خويلد رضي الله عنها . ورزقه الله تعالى منها الأولاد الذكور، والبنات وقد عشن حتى شهدن الرسالة، ومتن على التوحيد والإيمان. ليبحت عن حلول لأزمة بل كارثة كانت مكة والعالم كله يتيه فيها. ألا وهي أزمة الجفاف الروحي والوثنية السائدة وغياب التوحيد العريق. ﷺ. 13. لقد كتب الله تعالى للحبيب ﷺ القبول في قومه قبل أن يبعث رسولاً فيهم . فكان ذات يوم عند بوابة من بوابات الحرم أوشك على دخولها إذ سمع أهل مكة يقولون: أتاكم الأمين. إذ بهم يطلبونه لحلّ نزاع دام بينهم قرابة أربعة أيام حول ترتيب وضع الحجر الأسود في مكانه، بعد تمام بناء الكعبة، وقد شاركهم قبل ذلك في البناء. وأن تأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب ويرفعوه ، بأنه سيكون له دور طليعي لاحق في حل أزمته، 14. جعل له حضوراً في قومه. وهم يعرفونه جيداً في رعاية أغنامهم، وحل مشكلاتهم، كل ذلك في مرحلة الشباب الفؤار، ﷺ. فالبيئة القبلية لا تفتح أفقا واسعا لأبنائها خارج الصندوق المقفل. ذاك الغار الكائن في جبل شاهق الارتفاع ، كان يمي فيه الليالي نوات العدد، ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها ويتزود ثانية ليعود. لقد حملت خديجة رضي الله عنها عنه عبء التجارة ورعاية الأبناء. وهي تشعر أنه يبحث عن حلول ويفكر في أمر كبير. لقد زاد الظلم ووأد البنات والزنا والربا، وأنهم رعا لا قيمة لهم بين الأمم وغوغاء. 16. منطلق البعثة الشريفة: لقد نزل عليه وهو في الغار أمين الوحي جبرئيل عليه السلام. وقد كان لقاؤه الأول به مربعاً؛ ثم قال له: (لم لي ما ويصحبهم في بعض مراحل تبليغها. لقد كان موقفاً مربعاً. ولا يدري كيف نزل، وقد خشي على نفسه من الهلاك أو البلاء. استراتيجيات إدارة الموقف الملتبس: ثم استدعت تاريخ علاقته بها، لتثبت أن ما حصل معه ليس شرّاً بل هو الخير المطلق. لقد ذكرته بأنه كان؛ لكنها بعدُ تريد الاطمئنان أكثر والكشف عن لغز ما حصل معه. فأخذته إلى (ورقة بن نوفل) وكان من أبناء عمومتها. ثم طلبت منه أن يحكي له ما جرى معه ، فأخبر ورقة بكل شيء. ﷺ. 18. تشريف وتكليف: فما كان من ورقة إلا أن بشره وخوّفه في الوقت نفسه.

بشره بأنه سيكون النبي الخاتم للبشرية. لا رغبة في الزعامة التي لم يكن يتوقعها مطلقاً، فوجد في فكرة ومبدأ النبوة (طالما أنها جاءت كهيئة من الله تعالى) فرصة لذلك. وقد تذكر كلامه بعد) 13 (عاماً، يوم الهجرة من مكة إلى المدينة. ﷺ. ذاك الرجل الأصيل النبيل الذي تمنى لو كان شاباً لينصره. حال جديد: رجع ﷺ بمعية خديجة الحبيبة. تكليف في ثوب تشریف. وقد بلغ من العمر أربعين عاماً. نظر حينها خلفه وأدرك كيف أن الله تعالى صنعه على عينه وهيأه بالمنع ثم بالمنح؛ ووجده ضالاً فهداه، ووجده فقيراً فقيراً فأغناه؛ ليكون مؤهلاً لحمل أمانته ورسالته إلى خلقه. 20. وتذكر حادثة شق الصدر. تذكر عصمة الله له من مجرد مساس الأصنام، 21. وتحول الخوف إلى شوق: بدأت آيات الرسالة تنزل على قلبه. والوحي يلهمه ويرشده ويكلفه ويوجهه. لكن انقطاعه عنه فترة قصيرة سُميت بمرحلة فتور الوحي زاد من شوقه له، فكان كلما لقيه طلب منه أن لا يغيب عنه طويلاً، حتى فهم أنه لا ينتزل إلا بأمر الله الكريم العظيم. مقصد الرسالة: فقد وقع قوله تعالى: به تج (المدثر: 3، موقعه من قلبه ووجدانه، فأدرك أنه بشرٌ مؤيدٌ بالوحي. لقد كان القرآن العظيم ثروته وزاده وعدته. لقد منحه الله تعالى بالحكمة التي ألهمه إياها توفيقاً بشرح وبيان كتابه العظيم، فضلاً عن نقله بأمانة من أمين الوحي جِبيل عليه السلام إلى العالمين. ﷺ. من تلك اللحظة. لقد كان التوحيد المنطلق من الشهادتين هو عنوان الرسالة الأولى: فلا شرك ولا أصنام ولا وثنية. وأشهد أن محمداً رسول الله. 24. وآمن معها بناتها الطيبات. وقد كان في حجره مكفولاً عنده. وآمن صاحبه أبو بكر رضي الله عنهم كلهم. كان إيمان الأوائل معتمداً على أمرين اثنين: وهذا من فضل الله تعالى عليه. ثم بدأت حلقات الإيمان تتسع. فقد فهم كل مؤمن دوره في نقل الإيمان لغيره. على يدي صاحبه ورفيق دربه أبو بكر أو غيره من الأصحاب رضي الله عنهم. فهذا عثمان بن عفان وأبو ذر الغفاري وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رضي الله عنهم وغيرهم كلهم نالوا شرف السبق في الإسلام. ومع اتساع حلقات الإيمان كانت تتسع حلقات السور والآيات التي تنزل تعليماً وتطميناً له ﷺ ولأصحابه الكرام. 25. لكنه فهم أن النزول كان يناسب زمانه. كيف لا وهو يعلم أنه لا نبي بعده. كان القرآن في مكة يحكي قضايا الإيمان ويركّز على إجابة شبهات المشركين، ويرغب ويرهب المهتدين. كتمان للإيمان: بدأت قريش تشك في حركة غريبة تدور في الأفق على الرغم من حرصه الشديد على الإسرار والكتمان. حتى لا يستفز عصبية قريش. لدرجة أن الحبيب ﷺ كان يطلب من المسلمين الجدد الكتمان حتى عن إخوانهم. وكان يطلب ممن يسلمون من خارج مكة أن يكتموا إيمانهم ويرجعوا لأقوامهم إلى حين ظهوره لاحقاً. الأذى المبكر: والآباء متوكلون بتعذيب أبنائهم. ولكن قريشاً كانت حريصة على سؤقها وتجارها؛ بل قبلت أن يشتري أبو بكر رضي الله عنه عدداً من العبيد المهتدين ليطلق سراحهم ويخلصهم من إيذاء أسيادهم. وكان هذا من أحب المواقف إلى قلبه. ﷺ. إلى عبادة رب العباد. 28. في دار الفتى الشجاع؛ صحيح أنه كان غلاماً صغيراً، لكن صغر سنه كان مموهاً لمشركي مكة. وكلهم يملك من الحماسة ليفتدي الإسلام بكل ما يملك على اختلاف طبقاته. 29. بقيت الدعوة بالتهامس. وأن التهامس لا يناسب غاية تلك الدعوة وطموحها الفتية. فكانت مرحلة. لكنها لم تكن كل مرحلة. ونادى القوم وجهر بدعوته ومن حوله عشيرته وعموم المهتدين. لقد كان الحبيب يعلم أن درء المفاسد أولى من جلب المصالح. ثم لإدراكه أنه ليس كل مفسدة درؤها أولى من جلب كل مصلحة. فكان الصدع والجهر وكان ما تبعه من إيذاء. 30. ثم ثن ثن في (المسد: 1. ثم تصدى لمحاربة دعوته كبراء القوم كأبي جهل وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وغيرهم. ثم اتهموه بالسحر والكهانة والشعر والجنون. وهم يجمعون بذلك الأذى المعنوي والمادي. عليهم من الله ما يستحقون. 31. وكانت معجزته ﷺ وهم أهل لغة وفصاحة وبيان. أو أن يصبر عليهم. ﷺ. ولا يُذكر سوى أنه دعا عليهم بالهلاك أو على بعضهم مرة واحدة أو مرتين. مساومات: وكان من كيدهم ومكرهم أنهم ساوموه أكثر من مرة على ترك دعوته مقابل أن يعطوه أموالاً ونساءً ومناصب. ولكن الله تعالى كان يُبَيِّنُه، وقال له بأنه يوفى يعطيه فيرضيه؛ فأعطاه وأرضاه. وليتهم اكتفوا بإيذائهم له دون أصحابه وأحبابه الذين وجدوا العنت والمشقة والحرمان والتعذيب كذلك بسبب ثباتهم على العقيدة. كانت سنوات الدعوة الأولى ثقيلة ثقيلة. لقد كانت حصيلة المؤمنين بمكة قليلة لكنهم هم الذين حموا الدين في نفوسهم الزكية وحملوه إلى العالمين. ولا يملك إلا أن يقول لهم: صباباً آل ياسر فإن موعدكم الجنة. ﷺ. 33. تنفيس وتخفيف: ولقد ألهمه الله تعالى لأسلوب حكيم في استقطاب حتى الخصوم ممن كان يأمل هدايتهم. يترك يهوديته. وضامد الأزدي يترك خصومته. ويموتون في سبيله رضي الله عنهم. ثم حمية للإيمان بعد أن لمسها وأدركه. رضي الله عنهما. وكذلك كان يوم إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه رافعة معنوية لأصحابه. لكنه كان يعلم أن النصر والرزق كذلك إنما تأتي ببكة الضعفاء. ولقد تعرض لعتاب ربه في صاحبه الأعمى (ابن أم مكتوم) حين أشاح بوجهه عنه رغبة في إسلام بعض كبراء قريش. وقد جاء يسأله وكان في حوار معهم. ﷺ. ويعترضون على القرآن والصحابه بمثل اعتراضهم على شخصية الرسول ﷺ. وتضاعف الأذى فكانت فكرة

الهجرة مخرجا للمهتدين من جهة. وكانت خيارات مكان الهجرة متعددة. فهاجروا في السنة الخامسة للبعثة . الوحي له وبحرصه على معرفة التوازنات السياسية من حوله أن فيها ملكاً عادلاً لا يُظلم عنده أحد، 36. وقد أقاموا في الحبشة فترة وجيزة. قرأ سورةً فيها سجدة، فسجد مَنْ كان حول الكعبة معه سجود رهبة لا إرادي. لا سجود إيمان حقيقي. وقد زعم بعض من سيخاصمهم الحبيب ﷺ أمام الله تعالى بأنه داهن المشركين وَقَبَّ السجود لأصنامهم كي يسجدوا لله تعالى. وهذا ما كان ولن يكون. المهم هنا أن أصحابه بلغهم إشاعة وخبا مكذوبا يقول بإسلام قريش فرجعوا من الحبشة. فعرف كفار مكة برجعهم فتعرضوا لإبداء مضاعف. 37. موقف قريش من هجرة الحبشة: عندئذ قرر كبراء مكة أن يبعثوا بهدايا مع رجلين من رجالهم إلى الحبشة ليأتوا بأصحابه مكبلين مقيدين بالسلاسل إلى مكة. وكان أن تم رشوة من كان حول النجاشي من الرهبان قبل الدخول إلى مجلسه بالهدايا. فوفق الله الصحابة وحبيب النبي ﷺ وابن عمه (جعفر بن أبي طالب) رضي الله عنه ليرد هذه الفرية. 38. وطرد عمرو بن العاص ومن معه. وله هو وأمه مريم مكانة رفيعة عند الله وعند المسلمين. فطرد النجاشي عمرو ومن معه من مجلسه. وأصدر تعميمه بأن أصحاب الحبيب ﷺ آمنون عنده. وأن من سبهم سيُغرم. إقامة ناجحة وأهداف رابحة: مكث أصحابه ﷺ في دار النصارى مع قوم متعصبين لنصرانيتهم، مختلفين في لغتهم وطباعهم؛ لم يغيروا ولم يبدلوا وحافظوا على ثقافتهم ودينهم وهويتهم بتوفيق الله وحفظه لهم. وكان من أعظم ثمار دعوتهم؛ إسلام ملك الحبشة (النجاشي)، الذي أسلم على يديه عمرو بن العاص رضي الله عنه لاحقاً. 40. عودة ميمونة: ولو أنه ﷺ وصله أن هويتهم وعقيدتهم قد تأثرت في الحبشة لطلب رجوعهم إلى المدينة المنورة فور دخوله وهجرته لها لاحقاً. لكنه أذن لهم بالعودة في السنة السابعة للهجرة بعد أن تخلص من آخر حصن من حصون يهود في المدينة وذلك عند فتح خيبر. وكان مما يقال بأنه قال حينها: لا أدري بأيهما أسر أكثر. بفتح خيبر. أم بقدوم جعفر. وأيدهم بسلطة النجاشي . وحماهم من الذوبان والانصهار في مجتمع الأغيار. 41. نظر ﷺ حوله فوجد عدداً قد لا يزيد على خمسين من أصحابه حوله فحسب. سوى عمه أبو لهب. منهم (المطعم بن عدي) وغيره فوقفوا في وجه أبي جهل. وتمردوا على حصاره الجائر. ويقال بأنهم ذهبوا لتمزيق بنود الحصار فوجدوا أن حشرات صغيرة قد أكلت تلك الورقة التي كتبوا البنود عليها وعلفوها في الكعبة. وهكذا طويت صفحة من العناء شكلت له ﷺ حرجاً كبيراً مع أصحابه الذين اعتادوا المشقة والعنت. ولكن الله سلم. 42. تلك التي هي من سيدات أهل الجنة. تلك التي أخبرنا عنها أنها من كاملات النساء. ثم مات في العام نفسه عمه أبو طالب. ذاك الذي وقف متحدياً قريش كل قريش في سبيل حمايته وإيوائه. بل ويهدي من يشاء سبحانه أن يهديه. رحلة الطائف: وقع اختياره على الطائف لقربها من المدينة ومناسبة أجوائها. فظن أنه لعل في ذلك ما يدعو ثقيف إلى الاهتداء أو أن يقبلوه لاجئاً يتحرك في تبليغ الدعوة دون مضايقة من أحد. ذهب في تلك الرحلة الشريفة بصحبة خادمه (زيد بن حارثة) رضي الله عنه في مشهد فيه من التكتّم عن قريش، عرض ورفض: ولما وصل ﷺ الطائف وعرض رسالة ربه لزعمائها يهدوء. رده الزعماء بسخرية، بل حرضوا غلمانهم ومجانينهم ضده. وتكبر بعضهم عن مجرد سماعه ومحاورته. وكان قد طلب منهم أن يكتموا خب مجيئه إليهم عن قريش طالما أنهم لم يُسلموا. غير أنهم لم يسلموا ولم يكتموا. فخرج من عندهم وقد نجح في تبليغهم. عودة حزينه وقلب كبير: خرج ﷺ من الطائف حزينا، لأنهم تسببوا فيما هو فيه من عنت. لكنه ﷺ طلب منه ألا يفعل، وهذا ما حصل فعلاً. لقد رفع سهام دعائه لربه شاكياً ضعفه وقلته حيلته، وكان همه الأكبر أن لا يكون في اجتهاداته ما يخالف أمر ربه. عند خروجه من الطائف: أكرم الله تعالى الحبيب ﷺ عند رجوعه من الطائف وكان ذلك في العام العاشر من البعثة، وحاوّر فيه خادمهم عداس النصراني، وأنه على معرفة بنبي الله يونس عليه السلام. وقد نزل تحت شجرة فلقية عندها نفر من الجن سمعوا القرآن فاهتدوا، ثم رجعوا إلى قومهم منذرين. في مشهد من مشاهد المواساة له من الله تعالى على ما أصابه من ثقيف. وكان يحسب أن المشكلة ستنتهي بمجرد وصوله مكة. لكنها في الحقيقة بدأت هناك. عند عودته لمكة: فعزموا على منعه من دخولها؛ فوقف على أبواب مكة يفكر. فالخيارات أمامه محصورة. هل يخبر أصحابه ليحضروا لمساعدته. وهذا ما قد يؤدي إلى مزيد من المشكلات لهم. لكنه لم يستنفد بعدُ كامل الجهد في مكة. وله فيها أصحاب يخشى عليهم من فتنة قريش. وللضرورة أحكامها.